نفوس الشعراء[1]

الشعراء وما ادراك ما الشعراء فئة من الناس رُزقوا من بقاء الذكر اوفر نصيب فهذا السموأل قد خلّد ذكرهُ بلاميته الفخرية التي دارت على الالسنة حتى تشل بابياتها الكتّاب والخطباء والمحدّثين . وهؤلاء اصحاب المعلّقات السبع قد حرص الادباء على نسخ قصائدهم وحفظها وطبعها وعُنوا بشرحها . وهذا الاعشى والحطيئة والذبيانة وجرير والاخطل والفرزدق وابو تمام وابو الطيّب المتنبي وابو عبادة البحتري ومئات بل الوف غيرهم قد بقي ذكرهم بما نظموا من الشعر فكأنّهم احياء باقون الى يوم الحشر والنشور . ولقد اشتغل الادباء ببيان طبقاتهم ولم ينظروا في ذلك الاّ الى حسن السبك ولطف الاسلوب ورقّة المعنى وجمال التخيّل وهو امرٌ لا بدّ منهُ لمن يبتغي ان يعرف طبقات الشعراء

لكن احدًا من تصدّى للكلام في اشعارهم لم يلتفت الى الينابيع التي نبعت منها فخطر لي انا المعترفة بقصر اليد ان اوجّه النظر الضعيف الى تلك الينابيع لاعرف طبقات نفوسهم التي عنها صدرت افوالهم ومنها جاءت قصائدهم ومقطوعاتهم فرأيتهُ خاطرًا جميلاً لهُ طلاوة الجديد وحلاوة البكر غير اني لم أجد رابيةً ولا تلّة جبل ولا كوّةً فأُطلّ منها على نفوس الشعراء ولا غرض لي اطلبهُ فيها سوى الاشراف على نفوسهم فرأيت اكثر تلك النفوس لاصقة بملاذّ الابدان مؤثرة اوامر الطمع والاهواء مشغوفةً بما يلذّ الحواس راكضةً ساجدةً امام ربّات الحسن والجمال او واقفةً بابواب العظماء والكرماء وقفة السؤال . فثلاثة ارباع الشعر العربيّ في باب الغزل وربعهُ في سائر الابواب وهو لتقدير لا نحسبهُ قصيًّا عن الصواب ولو سمت همهم الى الملاذّ المعنوية ما لصقت نفوسهم بالملاذّ الحسية ولا انقادت لاوامر الطمع والهوى فهم اذًا في عبودية الدنيا كما سبق الايماء حاشا ابا العلاء المعرّي ومن حذا حذوهُ قولاً وفعلاً . فلقد رأيت نفسهُ كملك خرّت الدنيا على قدميهِ فأعرض عنها واقبل يتأمل هذا الكون البديع الناطق بانهُ ابن القدرة الفائقة والحكمة العالية فيالها من نفس شريفة ليس لها غير الفضيلة حلة الاّ وهي القائلة

ولو اني حميت الخلد فردًا ... لما أحببتُ بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليَّ ولا بارضي ... سحائبُ ليس تنتظم البلادا

---

(١) المرحومة عفيفة كريمة الشيخ سعيد الخوري الشرتوني وقرينة الشاب الاديب الخواجه نصري موسى الشرتوني في ٦ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٦ في مدينة بارا من اعمال البرازيل عن عشرين عامًا

فلو صوّرت نفس هذا الشاعر لتجلّت تلك الفضيلة . ولو صوّرت نفوس الشعراء المقيَّدة بحبّ الدنيا المستوفة للشهوات لبدا لك معها الضمع كالحوت فاغرًا فاهُ والحسد كالنار تتقد في قلوبهم ولكنت تشهد حينئذٍ مع القائل في ابي العلاء

قد كان صاحب هذا القبر جوهرةً كريمةً صاغها الرحمان من شرفِ
عزّت فلم تعرفِ الايام قيمتها فردّها غيرةً منهُ الى الصدفِ

﴿ فكر ابي العلاء ﴾

لم يكن ابو العلاء من حيث الفكر سوقةً ولا رعيةً بل كان ملكاً فهو من اعاظم ملوك الافكار ومن اكابر نوّاد العقول واما غيرهُ ممن اطلعت على شعرهم فمعظمهم رعايا افكار من درجوا واصحاب معانٍ متداولة ولو اتتق لاحدهم اسلوب جديد في معنى مطروق ولم يكن قد عثر عليهِ فيما طالع او سمع بادر الى دعوى الابتكار كأنهُ قد فتح مملكةً عظيمة . وربما لو استقرى ما تقدَّمهُ من الاشعار لظهر انهُ مسبوق اليهِ لا حقَّ لهُ فيهِ الّا ان يُعدّ من باب توارد الخواطر

على انك لو اخذت الابواب التي نظم فيها الشعراء قاطبةً ونظرت الى اصول المعاني لاستطعت ان تردّ الدواوين ديوانًا فانهم لا يختلفون الاّ في صوَر التعابير وابواب الدخول على المعنى فيكون ذلك الديوان عصارة افكارهم وخلاصة ما انبتت قرائحهم . واما ابوالعلاء فقد نظم كثيرًا من المعاني المتداولة لكنهُ جاء بتفكرات متعدّدة فحقَّ القيّهُ بقائد الافكار فلقد نهج سبلاً لم تنهج من قبل . سوّدت بخمسة وعشرين ديوانًا غير ديوانهِ ولا ضائع لي فيها الاّ الغرض الذي ذكرت فان كان قد سُبق الى ذلك فامرٌ لم اطّلع عليهِ

﴿ منزلة ابي العلاء ومنزلة الشعراء عند القوّة العاقلة ﴾

لو كان لمصوّر ان يصوّر العقل متصدّرًا في مجلسهِ والشعراء يقبلون عليهِ بقصائدهم التي سجّوا بها نوبات الحسن والجمال او جعلوها حانات لاهل الشراب ومجامع للفتين لرثى لهم ولبكى لسوء مصيرهم وارام انهم قد تركوا ملاذّ النفس الشريفة الدائمة الى ملاذّ الجسد الدنيئة الزائلة ولكان يهنئُ ابا العلاء ويقرّبهُ ويجلُّ قدرهُ ويكرم وفادتهُ . ذلك اولاً انهُ لم يرضَ لنفسهِ ان يتغمس فيما انغمسوا فيهِ كيف لا وهو الفاعل بما قال

ومن يطهّرْ يخوف الله مهجتهُ فذاك انسانُ قوم يشبهُ الملكا

وثانيًا انهُ استعان ببيانهِ ووقف اشعة ذهنهِ على ارشاد الافكار ودعاء الناس الى الخير فهو المشيّع وصيتهُ الصريحة في قولهِ

طيك بفعل الخير لو لم يكن لهُ من الفضل الاَّ حسنهُ في المسامع

خلافاً لمن قال فيهم

لقد جاء قومٌ يدَّعون فضيلةً وكلهمُ يبغي بمجلبهِ نفعا

ولعلك تقول لي ان بعض الشعراء قد نظموا في الحِكَم والنصائح والتوبة والزهد كابن الوردي والمتنبي وابي العتاهية والحريري فلِمَ لم تنظمهم في سلك ابي العلاء ولِمَ هذا التكلف بهذا الضرير. فقلت أما كفتني جهذا الضرير البصر الصحيح البصيرة فلا لأصرة قرابة او معرفة او التماس منفعة فبيني وبينه ما يزيد على ثمانمائة سنة فانا اعرف اسمهُ واقوالهُ فقط وهو لا يعرف من امري شيئاً ولا سبيل لي فاقول عنهُ كما قال عن نفسهِ في قول المتنبي

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعت كلماتي من به صممُ

واما اني لم انظمهم وامثالهم في سلكهِ فلأن اولئك من السكارى بخمرة الملاذ الجسديَّة ومن اسارى المطامع البشريَّة لكنهما قد عرضت لهم صعوبات فأبصروا طريق الهدى غير ان نفوسهم المصابة بهوى ملاذك الملاذ أبت عليهم ان تسلك ذلك الطريق فكان تأثير قصائدهم المنظومة في تلك الصعوبات مثل تأثير الاغاني في بوق الفونوغراف ثم كان هذا حالهُ فهل يحق لهُ ان يجلس الى جنب مثل ابي العلاء الذي تكاد نفسهُ تكون ملكيَّة مما يشين النفس او يقدح في النزاهة كما تدلُّ على ذلك افعالهُ وكلام الذين كتبوا سيرتهُ وعاشروهُ فكم في هذه الارض من قائل خير وفاعل شرّ ممن هم مصداق قول شاعرنا الصافي النفس

رويدك قد غررت وانت حرٌّ بصاحب حيلةٍ يعظ النساء
يحرِّم فيكمُ الصهباء صبحاً ويشربها على عمدٍ مساء
يقول لكم غدوتُ بلا كتاب وفي لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ما عنهُ ينهى فمن جهتين لا جهتي اساء

شواهد من اقوال شعراء الملاذ الجسديَّة ومن قول شاعر الحديث

لا احدًا ممن طالع الاشعار العربيَّة ينكر عليَّ شيئاً مما قلت ومع ذلك فقد حسن في عيني ان اروي لكلا الفريقين ما يتلوها للمطالع لان الشيء يظهر اتم الظهور متى قوبل بضدهِ قال متنبيهم متغزلاً

يا بعليك من صخرٍ صلي دنفاً يهوى الحياة وأما ان صددت فلا
وقلبي على جمرٍ زكيٍّ من الهوى وعيناي في روضٍ من الحسن ترتعُ

ان كنتِ ظاعنةً فان مدامعي تروي مزادكمُ وتروي العيسا (١)
خودٌ جنت بيني وبين عواذلي حرباً وغادرت الفؤاد وطيسا (٢)

وقال مستجدياً

ارجو نداك ولا اخشى المطال بهِ يا من اذا وهب الدنيا فقد بخلا
ياذا الذي يهب الكثير وعندهُ أني عليهِ باخذهِ اتصدقُ
امطر عليَّ سحاب جودك ثروةً وانظر اليَّ برحمةٍ لا اغرقُ

وقلّت قصيدة لابي الطيب خالية من السؤال وما اطول باعهُ في افانين الاستجداء فكأنهُ امام بني ساسان

واما ابو العلاء فكان ارفع من ان يقول الشعر ابتغاء الصلة واعلى من ان يصرف نفسهُ عن جمال الخالق الدائم الى جمال المخلوق الزائل ومثلهُ تكون سطوة الجمال البشري على قلبهِ ذاهبةً بهِ الى الغرام بالجمال الالهي

وقال عنترة متغزلاً

احبكِ يا ظلوم فانت عندي مكان الروح من جسد الجبانِ
ولو اني اقول مكان روحي خشيتُ عليكِ بادرةَ الطعانِ

وهو في اكثر قصائدهِ يتغزل بعبلة كما يتغزل كثير بعزّة وغيلان بمي وقيس بليلى وجميل ببثينة وعروة بعفراء فلوم في ذلك النسوة قصائد تصف مكرات الغرام وتصوّر ضعف النفس التي غلب عليها حبّ المحاسن الزائلة فمالك منها ما هو كحبة من كثيب (٣)

اذا رمتُ عنها سلوةً قال شافعٌ من الحسن يبعاد السلو المقابرُ
فيا حبها زدني جوًى كل ليلةٍ ويا سلوة الايام موعدك الحشرُ
فلو انَّ ليلى الاخيليةَ سلَّمت عليَّ ودوني جندلٌ وصفائحُ
لسلَّمت تسليم البشاشة او زقا اليها صدًى من جانب القبر صائحُ

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعتُ كلامها خرُّوا لعزّة ركَّعًا وسجودا

واليك مما قيل في الشراب وهو نطرة من سحاب

خليليَّ قد طاب الشراب المورَّدُ وقد عدتُ بعد انسلك والعود احمدُ

(١) المزاد جمع المزادة وهي قربة الماء والعيس الجمال البيض (٢) الوطيس التنور (٣) الرمل

فهاتا عقاراً في قميص زجاجةٍ كياقوتةٍ في دُرَّةٍ تتوقدُ
يصوغ عليها الماء شبّاك فضةٍ لهُ حلقٌ بيضٌ تحلُّ وتعقدُ
فصبوا عقاراً في الماء كأنها اذا نضوها جذوةٌ تتأكلُ (١)
تدبُّ دبيباً في العظام كأنهُ دبيبُ نمالٍ في نقا يتبيلُ (٢)

وقد اوصى بعض عبيد الخمرة قال

اذا متُّ فادفني الى جنب كرمةٍ تروّي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فانني أخاف اذا ما متُّ ان لا اذوقها

وقد اوصى عبد آخر من عبيد الراح ان تصفَّ لهُ الاقداح حول المقبرة في ابيات شردت عن حافظتي وضاعت ورقة كنت قد كتبتها عليها

﴿ شواهد من قول شاعر التهذيب ﴾

اتجعل تسبيح ربٍّ لا كفاء لهُ او رتّلنهُ ولا تجنح الى رتلِ
لا تطيعي مراك ايتها النفس فعي المليك فينا ربيبهْ
فالزمي النسك ان عتلتِ وفرّي من ذوي الجهل كي تسدّي لبيبهْ
وبما أدام الرزء تكذيب صادقٍ عن خيرةٍ منا وتصديق كاذبِ
الدين انصافك الاقوام كلهمُ وايُّ دينٍ لآبي الحق ان وجبا
وما الغواني الغوادي في ملاعبها لأغيالاتُ وقتٍ أشبهت لعبا
اذا تفكرت فكرًا لا يعازبهُ فسادَ عقل صحيح هان ما صعُبا
فالبُّ ان ضحَّ اعطى النفس فترتها حتى تموت وسعي جدَّها لعبا
أينا سوى غشّ الصدور وانما يدالُ ثراب الله اصلنا فلبا
ودانَ اناسٌ بالجزاء وكونهِ وقال رجال انما انتمُ بقلُ
فاوصيكم اما قبيحٌ فجانبوا واما جميلاً من فعالٍ فلا تقلوا
فاني وجدت النفس تبدي ندامةً على ما جنتهُ حين يحضرها النقلُ
وان صدقت ارواحنا في جسومنا فيوشك يوماً ان يعاودها العقلُ
قد صدَّق الناس ما الالباب تبطلهُ حتى لظنوا عجوزًا تحلب القمرا

(١) الجذوة : الجمرة (٢) النقا : تل الرمل ويتبيل : يخدّر

قد فاضت الدنيا بانفاسها على برايا واجناسها
والشر في العالم حتى انني مكسبها من فضل عرناسها
وكل حيّ فوقه ظالمٌ وما بها اظلم من ناسها

والجسم للروح دار طال ما نقلت هدمًا وحقّ لرب الدار تحويلُ
اخذت ميثاق ايام غررت بها وما على ذلك الميثاق تعويلُ
في قبضة الله اعمارٌ مقسمةٌ لها اذا شاء تقصير وتطويلُ

وشغلُ لم يستغفر الله ذنبهُ احقُّ به من ذكر زينب او جملِ

ولقد حفرتُ على اليقين بخاطري ما كاد يبلغ حفرهُ الانباطا

وارى ملوكًا لا تحوط رعيةً فعلامَ تؤخذ جزيةٌ ومكوسُ

مُلّ المقام فكم اعاشر امةً امرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

جهل الديانة من اذا عرضت لهُ اطماعهُ لم يُلفَ بالمتماسكِ

وردنا الى الدنيا باذن مليكنا لنعزّى ولسنا عالمين بما نعزي
ذوو النسك خير الناس في كل موطنٍ وزيهم بيت المعاشر خير زي

فلا يغرّنك من فراشنا زمرٌ يتلون في الظلم الفرقان والأسرا
يبدي التدين محتالٌ فعالهُ غير الجميل اذا ما جسمهُ شعرا

وعظ الزمان فما فهمت عظاتهِ وكأنهُ في صمتهِ يتكلمُ

كم وعظ الواعظون سنًّا وقام في الارض انبياه
فانصرفوا والبلاء باقٍ ولم يزلْ داؤك العياه

وكفاتك الشيءُ الذي كنت راجيًا وجاءك بالمقدار ما لم تكن ترجو

اللبُّ قطبٌ والامور لهُ رحى فبهِ تديرُ كفها وتدارُ

اذا صغّر اسمك حاسدوك فلا تُرُعْ لذلك والدنيا بسعدك تصغرُ
فان الثريا والثرى وحسبنا بها وسهيلاً كوكبٌ متصغّرُ
والعقلُ يزجرُ والطباعُ مع النهى كالفيل يضرب رأسهُ بالصولِ
والحق يثقلُ كل غاوٍ ظالمٍ واخو الديانة ما يحسّ بثقلهِ
وكيف لا تحبب النفس التي جعلت من جسمها في وعاء كلهُ دنسُ
والجسم كالثوب على روحهِ ينزع ان يخلق او يتسخ
ارواحنا معنا وليس لنا بها علمٌ فكيف اذا حوتها الاقبرُ
النفس عند فراقها جثمانها محزونة لدروس ربعٍ عامرِ
كحمامةٍ صيدت فنُتّف جيدها اسفاً لنظر حال وكر داثرِ
خالقٌ لا يشكُّ فيهِ قديمٌ وزمانٌ على الانام تقادم
القلبُ كالماء والاهواء طائفة عليهِ مثل حباب الماء في الماء
ولو جزينا على خلائقنا امسك عنا الحيا فما نزلا
لا يأسَ من الثواب مراقبٌ لله في الايراد والاصدارِ
فترى بدائع انبأت متصمتاً ان الجزاء بغير هذي الدارِ
لم يعفُ ربك عن مصرّ مارقٍ لكن تجاوز عن مسيءٍ تابا
لن تستقيم امور الناس في عصرٍ ولا استقامت فدا أمناً وذا رُعبا
ولا يقوم على حقٍّ بنو زمنٍ من عهد آدم كانوا في الهوى شعبا
خضبتَ ياساً بالمصيب صبابةً بيضاء طلّتك البنان المخضّبا
وما كان حبل العيش الا مملّكاً بعروة ايام الصبا فتقضّبا
تحلّ بتقوى او تحلّ بعفّةٍ فذلك خيرٌ من سوار وخلخالِ

فقابل ان شئت بين اقوالهِ واقوالهم تجد ان لهُ نفساً لم تكن مطية للطمع والهوى كما ذكرت لك . ولقد تفنن فيما كرّرهُ من ذمّ مخالطة الناس وسن الانتقاد على القباح السيرة

وشدَّد النكير في ذلك ولا سيما على رجال الدين واذا عارضتْ اقوالهُ في المرائين باقوال السيد المسيح في الكتب والمسيح يشهد انهُ قد عضَّد كثيرًا من آيات الانجيل فمن ذلك قولهُ في اخفاء الاحسان

أسرر جميلك واعمل ما هممتَ بهِ ان المليك على الاسرار مطَّلعُ

هذا واعتم مقالتي اولاً بالمي لم ارَ ابا العلاء في نبعة الاسف والغم تلتهب في قلبهِ جمرة الحزن فخطب نزل الاَّ عند ما قُبض والدهُ ووالدتهُ فقد استسلم للجزع واستولى الضعف على نفسهِ ونسي كل ما قالهُ في فائدة الموت وعدم مبالاتهِ بالمصائب وليتني كنت من اهل عصرهِ لكي انشدهُ في يوم ابيهِ قولهُ

تعبٌ كلها الحياةُ فما اعجبُ لاَّ من راغبٍ في ازديادِ

واسمعهُ في يوم امهِ قولهُ

لا استقيلُ زماني عثرةً ابدًا ما شاء فليأتِ انَّ الشهدَ كالصابِرِ

وثانيًا انهُ افرط في ذمّ البشر حتى قال

هل يغسلُ الناس عن وجه الثرى بشرٌ فما بقوا لم يبارح وجههُ الدنسُ
يبغوت مني مينًا لستُ احمدهُ فان صدقتُ عرتهم اوجهٌ عبسُ

وثالثًا اني التمس من قول شعراء العصران يهجروا النظم فيما سمّتهُ النفوس ويستعينوا بما رُزقوهُ من القريحة الشعرية على خوض المواضيع التي تبعث النفوس على الاعمال الشريفة الا وان الشعر الجيد يستميل القلب ويطرب السمع ويرتبط بالذاكرة فهذا ابو العلاء لاشكَّ انهُ جاء بما ينبهُ الافكار ويهيج الاذهان لشعرهِ ورشة ادب وصلاح ومثال لاحوال الدنيا واهلها. فهذه الافكار الصائبة من ينبوع نفسهِ الصافية فهو اذا وقع الى ايدي الاعاجم ونقل الى لغاتهم يرفعونهُ على سائر الشعراء ذلك انَّ في بعض اشعارهِ من اشعة العقل ما ليس في دواوينهم ولولا خوف الاطالة لكنت اروي لك من بدائع لهِ ما يأخذ بمجامع قلبك ويريك بعد المسافة بين فطرةٍ وفطرةٍ ولكن قلبي لا يطاوعني ان القي القلم من يدي قبل ان انجز لك قول هذا الفاتح الفكري

لعمرك ما غادرتُ مطلع هضبةٍ من الفكر الاَّ وارتقيتُ هضابها